تاريخنا الوطني ومسعى إعادة صياغته بشمولية وبروح جديدة*

أ. د. موسى لقبال (ت 2009)
جامعة الجزائر

مسعى إعادة كتابة تاريخ الوطن الجزائري بكل مراحله، عمل مركب ومعقد ونبيل ضمن مسيرة طويلة تقتضي الانخراط فيها بإرادة نافذة وخطة محكمة وباستمرارية وتلقائية من المختصين، بمنأى عن سلطة الفاعلين السياسيين.

وفي هذا الوقت وبالرغم من الترويج المكثف لهذا المسعى، وتكوين المركز الوطني للحركة الوطنية وثورة نوفمبر1954، الذي سهر على إنجاز بعض الأعمال المتعلقة بجوانب من الحركة الوطنية والثورة... فإنه لا توجد الآن وصفة سحرية لتعميم هذا المسعى ليشمل كل مراحل التاريخ الوطني، بسبب التركيز المفرط على مرحلة جزئية وعزل بقية الفترات التاريخية الوطنية الأخرى

* ورقة قدمت في اليوم الدراسي، كتابة التاريخ الوطني بين الحقيقة التاريخية والمتطلبات الظرفية"، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، يوم 26 نوفمبر 2007.

عن دائرة الاهتمام، حتى كأن حادث الثورة ومداه الزمني سبع سنوات عجاف حادث معزول لا رابطة تربطه ببقية تجارب البلاد وتراكمات حركتها الوطنية التي لا تظفر بالأهمية إلا لكي تكون مدخلا أو مركز انطلاق لتاريخ الثورة المسلحة ولكشف النقاب عن نسبة الفاعلين الرئيسيين فيها إلى تيارات الحركة الوطنية المختلفة، ألم يردد بعضهم خطأ مقولة:"إن كتابة تاريخ الثورة إنما يخص القائمين بها وليس لغيرهم الخوض فيها". حتى كأننا أمام احتكار غريب أو كهنوت مغلف بالأسرار... حقا؟!

ومن هنا نقف على الروح المحافظة التي تعوق كل جهد... وهنا نجد بترا وشطبا واختزالا مقصودا لتاريخ الوطن جميعه في حادثة واحدة حتى وإن كانت بحقهم أم الحوادث الوطنية جميعها.

إن انعدام الثقافة العميقة وانعدام الإحساس بالتاريخ الشامل كقيمة وطنية نحرص على تكامل حلقاتها وإن النفعية والذاتية غير المحدودة وربط التاريخ بالسياسة والتموقع في مراكز السلطة هذه كلها تدفع إلى إقصاء الآخرين بانتصاراتهم وأدوارهم وانكساراتهم أيضا. حتى كأن البلاد كانت نسيا منسيا، وانبعثت فجأة بهم وحدهم.

إذا كانت الثورة حادثا عظيما... وموجها، وانقلابيا بكل المقاييس وهذا هو الحق، فإن الاستعمار حادث عرضي ابتلينا به كغيرنا ثم انقشع ظلامه بمقاومة شرسة وطويلة مثل غيرنا، انخرط في تغذيتها الإنسان والحيوان والطبيعة.

لقد كانت لنا قبل الثورة، ثورات وأدوار وعلاقات وحركات وطنية ورجال ودول موغلة في القدم أو ناجمة في العصور الحديثة، لا يجوز طمسها أو تجاوزها والقفز عليها هكذا مع سبق الإصرار لتحقيق أهداف مادية أو معنوية لأشخاص أو مجموعات.

إن الذي نلحظه في ساحتنا، وفي سوق الكلام السياسي عندنا هو الاستهانة بالمرجعيات التاريخية الوطنية وتجاوزها إلى اصطلاحات أكثرها شيوعا حتى الآن الثورية والجهادية والأسرية فهل من سبيل إلى تأريخ للثورة الآن أمام العوائق الكثيرة والحواجز النفسية التي تجعل المهمة محفوفة بالمخاطر قبل عقد ونصف على الأقل وأهمها:

01 – بقاء الفاعلين الرئيسيين في السلطة حتى الآن وعدم رغبتهم فيما يبدو في إظهار ما يعد مساسا بدورهم أو تاريخيتهم أو انتمائهم للحركات الوطنية...

02 – الصراع على السلطة بين هؤلاء الفاعلين غداة الاستقلال على نحو تجاوز فيه جناح القوى الشرعية السياسية للحكومة المؤقتة المعترف بها وطنيا وعالميا وكذلك شرعية المجلس الوطني للثورة.

03 – ومما له علاقة بهذين العاملين التحفظ شبه التام على أرشيف الحكومة المؤقتة ومحاضر جلسات المجلس الوطني للثورة ربما لما يتضمنانه من أسرار ومواجهات بين الزمر السياسية أو تصفيات.

04 – أما العائق الأكبر فهو عجز السلطة الوطنية حتى الآن عن الحصول على أرشيف الدولة الجزائرية والثورة الوطنية من القوة الاستعمارية القديمة وبخاصة الفترتين العثمانية والاستعمارية.

إن هذه الأرشيفات سالفة الذكر مهمة بالدرجة الأولى للدارسين لما تتضمنه من وثائق تعكس تجارب الشعب قبل الثورة وأثناءها وبعد استعادة السيادة وهي تجارب تستحق الوقوف عندها لأخذ العبرة مما جرى قبل ظهور أولى بوادر الحركة الوطنية مع الأمير خالد وحركة النجم وحزب الشعب وحركة الانتصار التي خرجت الثورة المسلحة من رحمها.

إن التركيز على عهد الثورة والترويج لاستمرارها بشعبها الثلاث في وقت ما، لم يخل من انعكاس سلبي الآن بعد أن العهد بالحدث ولم يتبق إلا إشارة منه قد يكون للتطور المتسارع وبروز قيادات سياسية جديدة نصيب مما حصل من انقطاع حقيقي بين الثورة ... وواقع الحال وهو أمر طبيعي جدا وينطبق على كل الثورات العالمية. ولا تسأل عن عدد الملتقيات الجهوية والوطنية حول الثورة ورجالها حتى الآن، فهي كثيرة ودون جدوى ولا تحمل أي تجديد فكري أو وطني حتى أصبح لكل مدينة أو جهة ملتقى وأبطال تتباهى بهم. ودخلنا بسبب هذا التطور في مرحلة التفاخر والتباهي، وفي هذا ما فيه من مجانبة الحقيقة التاريخية لأن التركيز غالبا ما يكون على الجوانب الإيجابية للإرضاء وهو أمر لا يخدم التاريخ الموضوعي الذي نتوخاه ... كذلك، فإن التجاوز الملحوظ للمرجعيات الوطنية التاريخية، فيه تجن واضح ونكران مبين؛ فالأمم مهما عظم شأنها لا تستهين بمرجعياتها بل تجعلها عنوانا مميزا لها بين الأمم فأين نحن من ذلك كله ألا أن مرجعياتنا المقدسة هي موروثنا الثقافي العربي والأمازيغي الإسلامي وتراث دولة الأمير عبد القادر كانت بحق دولة حضارة عربية إسلامية بلغتها وتنظيماتها ورموزها وشعاراتها، دولة تتبنى عقيدة الإسلام وتقدير الجهاد بحق والنظام والكفاءة العلمية لذلك ازدانت بها العربية وزكت باستحقاق، فكانت لسانها الإداري والحضاري فأين نحن من ذلك؟

ولقد أُضِيف إلى مرجعياتنا بعد ذلك، صيحة ابن باديس:

" شعب الجزائر مسلم والى العروبة ينتسب"... فأين نحن من ذلك؟

وأخيرا... جاء بيان أول نوفمبر 1954 ليكون أقوى بيان مرجعي سياسي وحضاري يدعو إلى الجهاد... وإلى الوحدة الداخلية والمغاربية وإلى استرجاع الهوية الحضارية وتأسيس دولة شعبية وفق المبادئ الإسلامية...

إن مفهوم استعادة السيادة الذي نلوكه كثيرا يقتضي منا حتما السير على مقتضيات المرجعية الوطنية، وإحياء ما اندرس منها دون استثناء كما يقتضي إنكار الذاتية والمزاجية والشعوبية والهرولة إلى لغة القوم الظالمين.

وإلى عهد قريب كانت منظومة المدرسة الأساسية ضمن الأعمدة الرئيسة لنظامنا التربوي القومي، ثم قانون تعميم استعمال اللغة الوطنية لسانا إداريا وحضاريا لأنه الترجمة الحقيقية لاستقلالنا الحضاري وتميزنا عن القوى الاستعمارية التي أذلت هويتنا اللغوية والدينية، فأين مكان لغتنا في إدارتنا وتخاطبنا. على الرغم من ذلك فمجتمعنا العربي المسلم مجتمع أصيل ومرجعياته أصيلة وأعمدته ركينة راسخة في عمق التاريخ وتجاوزها لهذا السبب أو ذلك، يعد نكرانا بل انتكاسة للثورة ولدور رجال رواد، صنعوا خيرا و بنوا جزءا من تاريخ هذا الوطن منذ أقدم عصوره.

إن تاريخنا قديم وعريق قدم مجتمعنا وعراقته، ونحن في هذا الجانب مثل جيراننا في الشرق والغرب دون أية مفاضلة فتاريخنا يرقى إلى عصور سحيقة، بدءا من الحضارة العاترية إلى مشتة العربي وعين الحنش إلى فترة الممالك البربرية في العهد الروماني وما حفلت به من علاقات مع الفينيقيين والإغريق والبطالمة والرومان والبيزنطيين إلى عهد الوثبة الإسلامية بحركة الفتح العربي وما عرفته البلاد أثناءها من تجارب سياسية وآفاق دينية وحضارية انبثق عنها إعادة بعث الحياة في العلاقات مع المشرق العربي وبروز كيانات سياسية كالرستميين في تاهرت وكالبيوتات العلوية الحسنية في مناطق من بلادنا كتلمسان مقر السليمانيين حيث مرقد عميدهم محمد بن سليمان بن عبد الله ابن عم إدريس وبني محمد ... فضلا عن مراكز أخرى كمدينة الخضراء في تنس وسوق حمزة وسوق ابراهيم... مرورا بظهور دولة قارية حسينية علوية هي دولة

الفاطميين التي تمكنت بسيوف كتامة وأحلافها من توحيد المنطقة المغاربية ونقل هذا التيار إلى مصر وبلاد الشام وهذا ما يعد دورا رياديا ايجابيا شاملا لعناصر من المغرب الأوسط... وصولا إلى ميلاد حركة الجهاد التي استمرت بعد اختفاء الدولة الوطنية الحديثة وهي دولة الأمير عبد القادر إلى ثورة نوفمبر 1954 قمة نضج الحركة الوطنية الجزائرية المجاهدة هي ثورة القرن وثورة تحريرية مباركة استوعبت دروس الماضي بما فيه من الانكسارات. وبفضلها استعادت البلاد سيادتها المغتصبة وتألقها الوطني والعالمي وعلاقاتها المجمدة بجيرانها وإخوانها في العالمين العربي والإسلامي عضوا نشطا في الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي والوحدة الإفريقية وبعالمها المتوسطي وجمالها الإفريقي والعالمي حتى غدت الآن - ولله الحمد - منطقة جذب، دولة محورية محترمة تشد إليها الرحال من كل الآفاق ويخطب ودها من كل دول العالم... تحقق هذا كله بفضل جهود جبارة بذلت على أكثر من صعيد وبمختلف الوسائل والمناهج منذ 1999 وإلى الآن.

وللانخراط في مسعى كتابة تاريخ الوطن الجزائري لا بد من نبذ الشمولية التي جرى عليها طلبتنا وباحثونا حتى الآن حتى لا تصبح أحداث بلادنا غارقة في أحداث جيرانها مغربا ومشرقا، ويكون ذلك بالاقتصار على أحداث الجزائر ودورها ومظاهر حضارتها في مختلف العصور، وهنا تكون البداية، بتمهيد الأرضية أمام الباحثين برصد المظان والنصوص التي ذكر فيها المغرب الأوسط وحواضره وما جرى في هذه الحاضرة أو تلك بدءا بالعصور القديمة إلى عصرنا... وبالنسبة إلى العصور الإسلامية، فدور أبي المهاجر دينار يعد بداية حقيقة لدخول الإسلام فيما أصبح يعرف بالمغرب الأوسط أو الجزائر الآن. تلاه دور عقبة في حملته الثانية التي تم فيها استكشاف قواعد الزاب وحواضره ..

طبنة و تاهرت . وهكذا بتتابع النشاط في عهدي حسان مع الكاهنة، وموسى بن نصير .. مع قبائل المغرب الأوسط .. إن هذا النهج توخاه مثلا المستشرق الإيطالي "ميشيل اماري" في توثيق تاريخ صقلية في مختلف العصور عبر كتابه "المكتبة الصقلية".

وأذكر أننا في مرحلة الطلب في جامعة القاهرة في الخمسينات، درسنا كل مراحل تاريخ مصر الفرعونية – اليونانية– البطلمية – البيزنطية – الإسلامية... وكذا المملوكية والعثمانية وآثار حملة "بونابارت"على مصر وأهمها بداية اليقظة وتسجيل تاريخ مصر المعروف بـ : "وصف مصر" من طرف علماء الحملة الفرنسية ... وهكذا يكون التوجيه السليم.

ولكي نضمن الدقة... وتوسع النظرة بالإطلاع على ما كتبه الآخرون، لا بد من إنشاء مؤسسة للترجمة، تقوم بترجمة ونقل كل ما كتب عن الجزائر من الفرنسية خاصة إلى اللغة العربية، ليطلع عليه المهتمون بالموضوع. إن هذا الأمر فعله المأمون العباسي بإنشاء بيت الحكمة تقديرا لحركة النهضة والإحياء في عصره وهذا عمل جيد لأنه يسمح للباحثين بعد الإطلاع والنقد والإثراء الانخراط بيسر في عملية الكتابة التاريخية على أسس سليمة. وقد حدث ذلك عندما ترجمت دائرة المعارف الإسلامية إلى العربية، حيث انبرى علماء إلى رد شبه المستشرقين وتصحيح أخطائهم حيال الرسول- صلى الله عليه وسلم – وزوجاته والإسلام وعقيدته ولا ينبغي أن يقوم بالمهمة إلا المختصون البعيدون عن التأثيرات الإثنية والشعوبية وكذا تأثيرات المدرسة الفرنسية.

وتلعب القناعة والتوجيه دورا مهما في تجنيد المختصين الأكفاء، ولأقسام التاريخ والعلوم السياسية والاقتصادية والقانون والآثار والجغرافيا في الجامعات

دور في إنجاز هذا المسعى بواسطة اختيار أفضل العناصر وكذا المحاور التي يعالجونها...

وقد لاحظنا سلسلة أبحاث تصب في هذا المجال عرفت طريقها إلى النشر وهي في تزايد مستمر ودور الناشرين الوطنيين هنا مهم بدرجة قصوى فيجب تحسيسهم بنبل المهمة و بالربح الوفير. وقد تثرى الساحة بما ينشر في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية، المصادرة تقريبا من طرف ناشرين أذكياء يساعدهم في ذلك أدعياء نصبوا حكماء.

والأبحاث المنجزة في إطار الماجستير والدكتوراه، وكذا مذكرات القادة والسياسيين وآخرها مذكرات "عبد السلام بلعيد" لها مكانتها في هذا المسعى الوطني الكبير.

وفي هذا الإطار يعد عمل د. سعد الله في ميدان اختصاصه وحصري في التاريخ الثقافي، عملا جيدا... يمهد الطريق أمام الباحثين في الشأن الحضاري، بما اشتمل عليه هذا العمل الضخم المشكور صاحبه، من مادة أولية ملخصة ومصوغة بقلم أنيق من أديب أريب.

ومن مجموع الأبحاث والدراسات والمترجمات تتكون المعلمة أو دائرة معارف التاريخ الوطني التي ستصبح بعد المراجعات والتدقيقات والإضافات المستمرة، مرجعية تاريخية محكمة، وهذا ما خضعت له دائرة المعارف الإسلامية منذ صدور أولى طبعاتها.

ونحن إن سلمنا بزيادة كاملة للجيلالي، والميلي والمدني في وقت كان فيه التاريخ الإسلامي والوطني محظورا بالقانون فلا يستقيم لنا أن نتجاهل محاولات رجال منا على شاكلة ابن أبي دينار والسلاوي وابن أبي زرع سبقوا

عصرنا فسجلوا أحداث عصرهم ودولهم حسب مستوياتهم ومفهوم التاريخ في وقتهم ...

ومن هؤلاء: "ابن حماد الصنهاجي" وهو من سوق حمزة (البويرة الآن) الذي دون أخبار صنهاجة في كتابه" النبذ المحتاجة في أخبار صنهاجة بافريقية وبجاية" وصنهاجة في كثافتها تساوي أو تفوق ثلث سكان بلاد المغرب كما لم يهمل تاريخ الفاطميين وما بقي من آثارهم خاصة في بجاية في كتابه المنشور عن "أخبار ملوك بني عبيد". وكذلك فعل ابن أبي الصلت، في كتابه " الديباجة في أخبار صنهاجة " الذي يعد أحد مصادر ابن عذاري في كتابه " البيان المغرب " أما ابن شداد الصنهاجي، فقد كتب " الجمع والبيان" الذي اقتبس منه ابن الأثير والمقريزي...

أما ابن الصغير الذي عاصر بعض الأئمة الرستميين وعاش في تاهرت فقد كتب عن أخبار الأئمة الرستميين كتابا منشورا ومحققا بعناية الأستاذ ابراهيم بحاز ورفيقه، ولا ننس أبدا دور نسابة البربر المسلمين الذين ازدهروا في العصر الإسلامي وسجلوا تاريخ قبائلهم في كتب ضاعت وحفظت نتف منها في كتب تاريخية مشهورة كجمهرة ابن حزم وعبر ابن خلدون. ويهمنا منهم: هاني بن مصدور الكومي من كومية ندرومة رهط عبد المؤمن بن علي، ويعد مع غيره من النسابة من مصادر عبد الرحمن بن خلدون في كتابه العبر وإلى عصر متأخر نسبيا، كتب يحيى بن خلدون، كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد الزيانيين في تلمسان، وأضاف إليه عن أوليائها وصلاحها وعلمائها ابن مريم المديوني كتابه البستان. أما الغبريني من آث تغبرين في عزازقة، فسجل عبر كتابه " عنوان الدراية " تراجم علماء وصلحاء بجاية في القرن السابع الهجري أي عصره... وربما كان غير هؤلاء ممن أحسوا بضرورة تسجيل أحداث بلادهم

وعصرهم، لكن الحروب القبلية والفتن المذهبية وصراع القوى بدءا من صراع الفاطميين مع الأمويين في الأندلس في القرن الرابع الهجري قضت على كثير من الآثار الأدبية...

ولنا أن نقف عند رواية الإباضية عن حرق المكتبة المعصومة في تاهرت الرستمية من طرف الداعي أبي عبد الله الشيعي لنقيس عليها ما يمكن أن يكون قد حصل لآثار أدبية أخرى لم تظفر بالإشارة اليها.

وإذا أردنا أن نحذو حذو أسلافنا في محبتهم لبلدانهم وأنسابها حيث لم يهملوا تاريخها، فلنا أن نسلك إما طريقة التاريخ للدول التي قامت على ساحة منطقة المغرب الأوسط حسب تسلسلها التاريخي، أو طريقة التاريخ للأحلاف القبلية على أساس أدوارها، أو على حسب علاقاتها الداخلية والخارجية أو نسلك طريقة التأخير للتيارات السياسية والمذهبية عبر كل العصور.

ولقد سهرت شخصيا من خلال اهتمامي بالفاطميين على إبراز دور حلف كتامة المغرب الأوسطية كما سهر أقدم طلبتي على تسجيل أحداث السياسة الداخلية لهذه الدولة كما بحث آخر في دور زناتة في الحركات المذهبية وهي قبيلة مغرب أوسطية بامتياز.

يضاف إلى ذلك بحث علاقات الرستميين الخارجية ودراسة الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للمغرب الأوسط في القرنين الثالث والرابع الهجريين...

وقد استمرت العملية على هذه الوتيرة، وقد يكون لغيري في جامعات الوطن مثل هذه المحاولات التي تبقى متواضعة بالقياس إلى سعة مجال التاريخ الوطني ، خاصة في العصور الإسلامية محل اهتمامنا. والله الموفق.